الحلقة الخامسة

امرأة العزيز وضيوفها يدعون يوسف للفاحشة

يوسف يتضرع إلى مولاه ليصرف عنه كيدهن

يوسف في السجن يفسر الأحلام

يوسف يدعو إلى توحيد الله

تحقق تفسير يوسف للأحلام

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الخامسة

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ .

أشعار الحلقة الخامسة

مع يوسف الصّديق لازلنا جميعًا ذاهبين ١
مع قصة عصماء فى أحداثها ، هذا يقين ٢
الحقّ فيها صَار مهزومًا أمام المبطلين ٣
فلنستمع لضراعة الصديق حتى نستبين ٤
يرجو الإله فإنه المرجو للمتضرعين ٥
يارب من كيد النساء فإننى فى الخائفين ٦
السجن خير من حياة فى عداد الفاسقين ٧
يارب فاصرف كيدهنّ ، فإننى عبد أهين ٨
إن لم تُجب لضراعتى ، فقد انهزَمْتُ وأستكين ٩
وأبوءُ بالخسران ، ثم أعدُّ بين الجاهلين ١٠
رب السماء يجيب للمضطر بين الضارعين ١١
قد كان يوسف فى ضراعته صدوقًا إذ يبين ١٢
رب السماء أجابه ، هو ناصر المستضعفين ١٣
أنجاه من كيد النساء، فإنه كيد متين ١٤
الظلم طبع كامن فى نفس بعض الحاكمين ١٥
وعزيز مصر فلم يكن مثل الرجال الحازمين ١٦
عرف الحقيقة مثل ضوء الشمس عند المبصرين ١٧
لكن تجاهلها ومال إلى فعال الظالمين ١٨
قد أودعوا الصديق سجنًا مظلمًا كالمجرمين ١٩
رحماك رب العرش بالصديق نسل الأكرمين ٢٠
من كيد إخوته نجا ، قد كان من حقد دفين ٢١
والآن فى كيد جديد ، صار فى سجن مهين ٢٢
يا ابن الكرام فأنت فى عين العناية عن يقين ٢٣
السجن مكتوب عليك فلا تكن فى الساخطين ٢٤
فاصبر على البلوى تَفُزْ بالمجد بين الخالدين ٢٥
قد كان قبلك أنبياء فلم يكونوا مترفين ٢٦

لاقوا من الأهوال ما قد فاق وصف الواصفين ٢٧
اثنان دخلا معه سجن الظالمين المفترين ٢٨
فى السجن قد لاقى رجالاً صادقين وكاذبين ٢٩
عرفوه ذا خلق كريم من سلالة صالحين ٣٠
أنِسُوا به وقد اطمأنوا أنه رجل فطين ٣١
السجن تكثر فيه أحلام لكل النازلين ٣٢
ونبوة الصديق ، تأويل الرؤى للحالمين ٣٣
فأبوه بَشَّرَه بهذا قبل عشرات السنين ٣٤
لما رأى الرؤيا التى أودته للذل المهين ٣٥
فى السجن صار يفسر الأحلام بالقول الأمين ٣٦
هذا السجين رأى منامًا ، وهو بين النائمين ٣٧
فأتى إلى الصديق قال له : أتيتك أستبين ٣٨
إنى رأيت الخمر أعصرها لأجل الشاربين ٣٩
ماذا ترى ؟! إنى أحس براحة المستبشرين ٤٠
أما الأخير فقال : جئت لأسمع القول المبين ٤١
إنى رأيت الخُبْزَ أحْمِلُه لأجل الآكلين ٤٢
الطير تأكل منه كانوا كثرة للناظرين ٤٣
هيا فأخبرنى ، فإنك فى عداد المحسنين ٤٤
هذا هو الصديق يسدى نصحه للسامعين ٤٥
هى فرصة للنصح حتى لا يظلوا جاهلين ٤٦
يدعو إلى التوحيد بالحسنى وبالقول المبين ٤٧
إن يأتكم رزق ، فذا أدريه قبلاً عن يقين ٤٨
ذاكم لأن الله علمنى من العلم المكين ٤٩
إنى تركت القوم ما كانوا بحق مؤمنين ٥٠
كفروا بدين الله ما كانوا بِبَعْثٍ موقنين ٥١
لاشك هم يوم القيامة فى عداد الخاسرين ٥٢
وسلكت درب السابقين من الجدود الأولين ٥٣
درب الخليل ونسله ، كانوا هداة مهتدين ٥٤
يدعون للتوحيد أهل الجهل ثم المشركين ٥٥

الله يعطى فضله من شاء كونوا فاهمين ٥٦
والناس أكثرهم على النعماء ليسوا شاكرين ٥٧
يا إخوة السجن اسمعوا قولى وكونوا مدركين ٥٨
إن تؤمنوا بتعدد الأرباب لستم راشدين ٥٩
اللهُ ربُّ الخَلْق ليس له شريكٌ أو معين ٦٠
هو واحدٌ ، هو قادرٌ ، هو قاهرٌ لا يستكين ٦١
فلقد عبدتم دونه أسماء صنع الآدمين ٦٢
أنتم كذا آباؤكم كنتم جميعًا جاهلين ٦٣
كل الذين عبدتموهم دون رب العالمين ٦٤
لا يملكون النفع أو ضرًا لكل العابدين ٦٥
والناس أكثرهم فليسوا للحقيقة عارفين ٦٦
من بعد ذلك قال يوسف : إذ يجيب السائلين ٦٧
عما رأى الساقى فقال : نجوت من سجن لعين ٦٨
فلسوف تخرج من ظلام السجن والمستضعفين ٦٩
والخَمْرَ تَسْقِيها العزيزَ ، وتغتدى فى الآمنين ٧٠
عما رأى الخباز قال : كأنه وحى مبين ٧١
إنى أراك تموت صلبًا ، بئس صَلْبُ المجرمين ٧٢
والطير تأكل رأسك المصلوب أكل الجائعين ٧٣
قد تمت الفتوى ، وتم القول كونوا مدركين ٧٤
من بعد ذلك قال للساقى : مقال السائلين ٧٥
اذكُرْ لدى مولاك شأنى ، فهو لاه عن يقين ٧٦
إنى سُجِنْتُ بغير ذنب ، علّه أن يستبين ٧٧
ساقى المليك غدا طليقًا ، فى عداد الآمنين ٧٨
لكنه نَسِىَ الوصية صار فى المتشاغلين ٧٩
إن الذى أنساه شيطان يضل الذاكرين ٨٠
قد ظل يوسف قابعًا فى السجن بضعًا من سنين ٨١
قالوا : فتلك عقوبة ، من عند رب العالمين ٨٢
لسؤاله الساقى فهذا ليس للمتوكلين ٨٣

يوسف يهرع إلى مولاه ضارعا

.....

مع يوسف الصّديق لازلنا جميعًا ذاهبين ١
مع قصة عصماء فى أحداثها ، هذا يقين ٢
الحقّ فيها صَار مهزومًا أمام المبطلين ٣
فلنستمع لضراعة الصديق حتى نستبين ٤
يرجو الإله فإنه المرجو للمتضرعين ٥

ها نحن أولاء نواصل الحديث عن يوسف الصديق ، متابعين أحداث قصته بكل الاهتمام ، ولا غرو فهى قصة فريدة فى أحداثها وظروفها وملابساتها ، لذلك نالت اهتمام الباحثين قديمًا وحديثا ، ومرجع الاهتمام بها هو : كون طرفى الخصومة فيها ،أو أبطال القصة ، من مشاهير شخصيات المجتمع آنذاك : فالمرأة أحد طرفى الخصومة ، هى امرأة العزيز ، أى رئيس وزراء مصر كما قيل ، والطرف الثانى ، هو يوسف الصديق خادم المرأة ، أو فتاها فى ظاهر الأمر . . بيد أنه فى الوقت نفسه مساو للمرأة فى الشهرة ، لكونه خادمها وطرفًا فى القضية معها ، إذًا فشهرته مستمدة من شهرتها .

وشتان ما بين شهرة وشهرة فشهرتها هى أنها امرأة خائنة ، خانت زوجها ولوثت شرفه وهو من هو ،من حيث المسئولية والجاه والسلطان . . أما شهرة يوسف الصديق ، فهى الشرف والعفة والطهارة ، شاب فى عنفوان الشباب والفتوة ، عفّ وأبى أن يأتى الفاحشة ، وحافظ على شرف سيده الذى آواه فى بيته وأكرم مثواه .

إن يوسف بسلوكه هذا ، أبان عن معدنه الأصيل الذى ينزع به إلى آباء كرام ، لكونه الرابع فى السلسلة الذهبية ، من آل بيت النبوة . . فهو يوسف نبى الله ابن يعقوب نبى الله ابن إسحاق نبى الله ابن إبراهيم خليل الله!!

والواقع أن الناس منذ نزول القرآن الكريم ، إلى وقتنا هذا ، يقرأون أو يستمعون سورة «يوسف » بشغف ، وبعد قراءتها أو الاستماع إليها ، يدور الحديث بين السامعين عن أحداثها التى سجلها القرآن الكريم وحيًا يتلى على سمع الدنيا كلها . . ولا غرو فهى تحكى قصة خالدة . . بطلاها يمثلان خطين متناقضين تمامًا .

أحدهما : يوسف الصديق ، يمثل الإيمان والطهارة والعفة فى أسمى وأروع الصور.

الثانى : امرأة العزيز ، تمثل الفجور والمجون والانحلال فى أعلى الصور.

ومع هذا فقد انتصر صوت الباطل الذى تمثله امرأة العزيز الماجنة .. وهزم صوت الحق الذى يمثله يوسف الصديق ، سليل النبوة !!

ولنعد إلى جوهر الموضوع الذى طالما أجهد الباحثين قبلنا ،فكما أسلفنا ، فقد التف النساء حول يوسف الصديق ينصحنه بالاستجابة لما عرضته عليه سيدته، وهنّ فى الوقت نفسه ، قد ألقين أقنعة الحياء، فصار حديثهن يدور حول الجنس صراحة دون كناية.

ولا إخالك أخى القارئ الكريم ـ حفظك الله من كل سوء ـ قد غاب عن خيالك الواعى ، منظر النسوة حين التففن حول يوسف .. كيف كان حالهن؟!

لقد رأى يوسف نفسه بين جمع من النسوة ، قد تحللن من كل وازع دينى أو خلقى ، فحيثما التفت وقع نظره على امرأة قد كشفت عن جزء من جسدها ، توشك أن تلتهمه بنظراتها ، بل تريد أن تحتويه بين ذراعيها .. هنالك شعر يوسف فى أعماقه بشىء من الضعف الإنسانى قد انتابه ، فخشى على نفسه أن ينهار أمام هذا الحشد من الإغراءات التى تحيط به .

من ثم اتجه إلى مولاه ، هاتفًا من أعماقه بأصدق ضراعة ، مناجيًا رب السماء والأرض ، لأنه أهل للرجاء ، وهو الذى قال : « ادعونى أستجب لكم ».

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم ﴾ [غافر : ٦٠] وهو سبحانه وتعالى يجيب المضطر إذا دعاه .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

قال الفخر الرازى حول هذا المعنى :

كان قد حصل فى يوسف عليه السلام ، جميع الأسباب المرغبة فى تلك المعصية ، وهو الانتفاع بالمال والجاه ، والتمتع بالمنكوح والمطعوم ، وحصل فى الإعراض عنها جميع الأسباب المنفرة .

ومتى كان الأمر كذلك ، فقد قويت الدواعى فى الفعل ، وضعفت الدواعى فى الترك، فطلب من الله سبحانه وتعالى، أن يحدث فى قلبه أنواعًا من الدواعى المعارضة النافية لدواعى المعصية ، إذ لو لم يحصل هذا المعارض ، لحصل المرجح للوقوع فى المعصية ، خالياً عما يعارضه .. وذلك يوجب وقوع الفعل ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

يوسف يفضل السجن على مقارفة الفاحشة

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾

يارب من كيد النساء فإننى فى الخائفين	٦
السجن خير من حياة فى عداد الفاسقين	٧
يارب فاصرف كيدهنّ ، فإننى عبد أهين	٨
إن لم تُجب لضراعتى ، فقد انهزَمْتُ وأستكين	٩
وأبوءُ بالخسران ، ثم أعدُّ بين الجاهلين	١٠

لقد لجأ يوسف الصديق إلى مولاه ضارعًا ، أن ينقذه من هذا الموقف الذى خشى على نفسه فيه من الانهيار ، أما إغراءات النساء اللاتى أحطن به من كل جانب ، كل واحدة منهن تريد منه ما أرادته امرأة العزيز من قبل . . فمن ثم هتف قائلاً : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ .

ولنقرأ معًا ما كتبه الأستاذ رشيد رضا فى هذا المعنى :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أى قال : أى ربى الغالب على أمرى، العالم بسرى وجهرى ، إن الحبس والاعتقال فى السجن، مع المجرمين حيث شظف العيش، أحب إلى نفسى ، وآثر عندى على ما يدعوننى إليه هؤلاء النسوة ، من الاستمتاع بهن فى ترف هذه القصور وزينتها ، والاشتغال بحبهن عن حبك ، وبقربهن عن قربك ، وبمغازلتهن عن مناجاتك . . واسم التفضيل هنا لا مفهوم له ، أو على غير بابه كما يقال : فليس المراد أن ما يدعوننى إليه ، محبوب عندى ، والسجن أحب إلى منه، وإنما معناه أن هذين الأمرين ، إذا تعارضا وكان لابد من أحدهما ، فالسجن آثر وأولى بالترجيح ؛ لأن ما فيه من المشقة ، له فائدة عاجلة ، وعاقبة صالحة ، وأما مجاهدة هؤلاء النسوة ، مع المكث معهن ، فهو أشق على المؤمن العارف بربه ، وليس له من الفائدة والعاقبة ما للسجن فهو ـ أى اسم التفضيل ـ من قبيل قول المحدثين فى بعض الأحاديث الضعيفة : هو أصح ما فى هذا الباب .

وقيل : يجوز أن يكون المراد من التفضيل ، ترجيح الأحب بمقتضى الإيمان وحكم الشرع ، على المحبوب بمقتضى الغريزة وداعية الطبع ، فإن الأنبياء والصلحاء، كسائر البشر ، يحبون النساء ، ويشتهون الاستمتاع بهن ، ولكنهم يكرهون أن يكون من غير الوجه المشروع . . إلخ ما قال » تفسير المنار جـ١٢ .

ويواصل يوسف الصديق ضراعته إلى خالقه العظيم ، بأن يتداركه قبل أن يضعف ويستسلم ، قبل أن يغرق فى تيار الشهوات، الذى تهفو إليه نفوس البشر ، لاسيما الذين هم فى غضارة الشباب مثل يوسف الصديق . . يارب إن لم تنقذنى من كيدهن بقدرتك ، فإننى ضعيف وأخشى على نفسى الانقياد لهن ، ومن ثم أكون من الخاسرين وأعد بين الجاهلين .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ .

اعلم أن المرأة لما قالت ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)﴾ فعند ذلك اجتمع فى يوسف عليه السلام ، أنواع من الوسوسة:

أحدها : أن زليخا كانت فى غاية الحسن.

ثانيها : أنها كانت ذات مال وثروة ، وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف ، بتقدير أن يساعدها على مطلوبها .

ثالثها : أن النسوة اجتمعن عليه ، وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ، ومكر النساء فى هذا الباب شديد .

رابعها : أنه عليه السلام كان خائفًا من شرها ، وإقدامها على قتله وإهلاكه ، فاجتمع فى حق يوسف جهات الترغيب على موافقتها ، وجميع جهات التخويف على مخالفتها ، فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه ، واعلم أن القوة البشرية ، والطاقة الإنسانية ، لا تفى بحصول هذه العصمة القوية ، فعند هذا التجأ إلى الله تعالى وقال : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ .

وفيه سؤالان : السؤال الأول : السجن فى غاية المكروهية ، وما دعونه إليه فى غاية المطلوبية ، فكيف قال المشقة أحب إلى من اللذة؟!.

الجواب : أن تلك اللذة كانت تستعقب آلامًا عظيمة ، وهى الذم فى الدنيا والعقاب

فى الآخرة ، أما المكروه وهو اختيار السجن ، فيستعقب سعادات عظيمة ، وهى المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة ، فلهذا السبب قال: ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ .

السؤال الثانى : أن حبسهم له معصية ، كما أن الزنا معصية ، فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية؟! .

الجواب : تقدير الكلام أنه إذا كان لابد من التزام أحد الأمرين: أعنى الزنا أو السجن ، فهذا أولى ، لأنه متى وجب التزام شيئين كل واحد منهما شرٌ فأخفهما أولاهما بالتحمل. . قال تعالى : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أمل إليهن ، يقال : صبا إلى اللهو يصبو صبوًا إذا مال.

استجابة الله لضراعة يوسف

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

رب السماء يجيب للمضطر بين الضارعين ١١
قد كان يوسف فى ضراعته صدوقًا إذ يبين ١٢
رب السماء أجابه ، هو ناصر المستضعفين ١٣
أنجاه من كيد النساء، فإنه كيد متين ١٤

إن الإنسان حينما تنزل به نازلة، أيا ما كان نوعها ، فعليه أن يتخذ الأسباب المادية المتاحة لدفعها . . حتى إذا ما استنفد كل ما هو مستطاع من الأسباب ، ولما تنكشف تلك النازلة ، فعليه حينئذ أن يلجأ إلى خالق الأسباب والمسببات ، فليلجأ إلى مولاه ، يتضرع إليه ليكشفها عنه.

من ثم سوف يبادر الله بالاستجابة لضراعته ، ويكشف الضرَّ عنه ، وما ألم به ، وذلكم كان شأن يوسف الصديق ، مع امرأة العزيز أول الأمر ، حينما دعته لارتكاب الفاحشة قال : معاذ الله . . لقد رفض دعوتها دونما أدنى تردد أو تفكير .

وها هو ذا الآن مع جمع من النسوة ، كل واحدة منهن تريد منه ما أرادته امرأة العزيز من قبل . . ولا غرو فكل واحدة منهن كانت متجملة ، بحيث بدت فى أبهى وأحسن ما يمكن أن تكون ، وكل منهن تبدى مفاتنها إمعانًا فى إغراء يوسف واستمالته.

ولا ينبغى أن ننسى أن يوسف بشر ، وفى ريعان الشباب ، وللاحتمال البشرى حدود. . وهو فى وضعه الذى نتحدث عنه، فى موقف لا يقاوم ، ومن ثم فهو عرضة للاستسلام ، لذلك هرع إلى مولاه بأصدق مناجاة ، وقد كان مولاه معه ، يسمع ويرى. . ويعلم الصدق منه. . فاستجاب لضراعته ، فصرف كيدهن عنه .

ولنقرأ معًا ما كتبه الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى. .» قال:

« وسنرى كيف صرف الله تعالى السوء عن يوسف ، وبم صرفه ؟!.

فى السجن حصن الأمان :

لقد كان مما اختاره يوسف لنفسه ، فراراً من الوقوع فى الفتنة ، السجن الذى تهددته به امرأة العزيز ، إن هو لم يستجب لها، حين قالت فى وجهه : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)﴾ لقد اختار البلاء مع الاحتفاظ بدينه ، وخلقه، ومروءته ، على العافية فى نفسه، ومع الإفساد لدينه ، وخلقه والسقوط بمروءته إلى أن قال :

لقد كان السجن هو الصارف الذى صرف الله تعالى به هذا الكيد ، الذى يراد بعبد من عباده المخلصين ، فلقد عزله هذا السجن عزلاً تامًا عن موطن الفتنة ، وباعد بينه وبين مهابها التى تهب عليه منها ».

قال القرطبى فى تفسيره : « فاستجاب له ربه » وكأنه قال: اللهم اصرف عنى كيدهن، فاستجاب له دعاءه ولطف به ، وعصمه من الوقوع فى الزنا «كيدهن» قيل: لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه ، وقيل : يعنى كيد النساء ، وقيل : يعنى كيد امرأة العزيز ، على ما ذكر فى الآية والعموم أولى.

عزيز مصر يأمر بإيداع يوسف فى السجن

.....

الظلم طبع كامن فى نفس بعض الحاكمين ١٥
وعزيز مصر فلم يكن مثل الرجال الحازمين ١٦
عرف الحقيقة مثل ضوء الشمس عند المبصرين ١٧
لكن تجاهلها ومال إلى فعال الظالمين ١٨

من واقع دراسة التاريخ ، لاسيما تاريخ الحكام والملوك، فإن الظلم يقع منهم على الآخرين ، وهو دائما ينسب إليهم ، ويواكب مسيرة حياتهم خلال مدة حكمهم. . ولا غرو فمنهم من يظلم لأن الظلم يشبع نهمه ، ويملأ فراغ نفسه ، ويغذى غروره وكبرياءه، فهو يشعر بسعادة غامرة حينما يرى ضحاياه ، عاجزين ، مستضعفين ، يجأرون بالشكوى ، فهذا أشر الحكام .

ومنهم من يظلم فى لحظة ثورة غضب ، فإذا ما هدأت ثورة غضبه ، عاد إليه صوابه، فمن ثم بادر إلى رفع الظلم عمن ظلمهم .

ومنهم من يظلم لكونه لم يستطع أن يكون عادلاً، وذلك لتأثير واقع عليه ، من جهة أخرى هى أقوى منه، لضعف فى شخصيته. . ويبدو أن عزيز مصر كان من الصنف الأخير!!

ذلك لأنه عرف الحقيقة من واقع الحال . . لقد عرف أن يوسف برىء من الدعوى الباطلة التى ادعتها عليه المرأة . . وأن المرأة هى التى راودته عن نفسه .

يالله !! لقد وضحت الحقيقة أمام عزيز مصر، وضوح الشمس فى رابعة النهار، ومع ذلك تجاهلها . . فبدلاً من أن يضع الحق فى نصابه ، فينصف يوسف ، ويعيد إليه الطمأنينة التى افتقدها ، فى هذا الموقف الرهيب الذى يقفه ، فى مواجهة الخائنة ، أمر بإيداعه فى غياهب السجن ، ولم يكتف بذلك ، بل قال له : إياك أن تتفوه بكلمة واحدة عن هذا الأمر لأحد من الناس .

أليس هذا هو الظلم بعينه ؟! بلى، إنه لظلم صارخ . . ومن ثم فقد ظلم يوسف فى هذا الأمر مرتين : مرة حينما اتهمته المرأة أنه راودها عن نفسها، كذبًا وافتراءً ، والثانية حينما تبين العزيز براءته ، ثم أمر بإيداعه السجن.

وبرغم هذا ، فلم يعترض يوسف على قرار عزيز مصر الظالم . . بل قبله راضيًا، ذلك لأن السجن فى تصوره ، كان حصن الأمان له ؛ لينجو من كيد امرأة العزيز ، والنسوة الأخريات .

يوسف فى السجن ظلما

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

قد أودعوا الصديق سجنًا مظلمًا كالمجرمين ١٩
رحماك رب العرش بالصديق نسل الأكرمين ٢٠
من كيد إخوته نجا ، قد كان من حقد دفين ٢١
والآن فى كيد جديد ، صار فى سجن مهين ٢٢

فى بيت العزيز ، تمت مشاورات ، وحدثت مناقشات ، تتعلق بمصير يوسف الصديق، ويبدو أن مجلس الشورى الذى كان مجتمعا لمناقشة تقرير مصير يوسف، كان فيهم من يعترض على إلحاق الضرر بيوسف ، بيد أنه صوت ضعيف فيما يبدو، أو ربما كانوا جميعًا يفكرون فى مصير يوسف ، وأخيرًا اهتدوا إلى أن قرروا إيداعه السجن لفترة ما ، وبعد ذلك قد يرون رأيا آخر بشأنه.

وهكذا ، فالأقدار تسير فى فلك القدرة الإلهية ، ومن ثم فهى لا تتفق مع مفاهيم البشر ، ولا غرو فإخوة يوسف كادوا له ، وهموا بقتله حقدًا عليه، ثم تراجعوا عن فكرة القتل ، استجابة لرأى أحدهم، إلى فكرة أخرى أخف من القتل ، فألقَوْهُ فى الجب ، لكن العناية الإلهية تداركته ، فنجا على يد أحد وراد القافلة التجارية .

وها هو ذا الآن فى محنة جديدة . . إنه طرف فى خصومة، طرفها الآخر شخصية لها خطورتها فى المجتمع . . إنها امرأة عزيز مصر .

لقد ادعت المرأة أنه راودها عن نفسها . . وبعد البحث والتحرى والتحقيق، تبين للعزيز وبطانته ، براءة يوسف الصديق ، مما نسبته إليه تلك المرأة ، وبرغم هذا ، فقد قرروا إيداعه السجن . . !!

ياالله !! لقد أظلمت نفوس القوم ، عن رؤية الحق ، وبمعنى أدق ، لقد رأوا الحق، لكنهم بخلوا به ، أن يعطوه لأهله . . !!

فبدلاً من أن يكرمه عزيز مصر ؛ لكونه صان عرضه فى غيبته ، وتمسك بالفضيلة

والشرف، عاقبه بالسجن . . إنه منطق معكوس .

وبهذا نستطيع أن نقول : إن الظلم يلازم يوسف منذ طفولته ، ويلاحقه أينما حل وسار ، ويواكب مسيرة حياته . . هذا فيما يبدو للناس ، بيد أنه كان فى منطق الأقدار، طريقه إلى المجد ، والجاه ، والسلطان ، والنبوة فيما بعد .

قال الفخر الرازى في تفسيره : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ البداء عبارة عن تغير الرأى عما كان فى الأول.

والمراد من الآيات ، براءته بقد القميص من دُبر ، وخمش الوجه ، وإلزام الحكم إياها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ وظهرت أنواع أخر من الآيات ، بلغت مبلغ القطع ، ولكن القوم سكتوا عنها ، سعيًا فى إخفاء الفضيحة .

لسان حال الكون يواسى يوسف

.....

يا ابن الكرام فأنت فى عين العناية عن يقين ٢٣
السجن مكتوب عليك فلا تكن فى الساخطين ٢٤
فاصبر على البلوى تفُزْ بالمجد بين الخالدين ٢٥
قد كان قبلك أنبياء فلم يكونوا مترفين ٢٦
لاقوا من الأهوال ما قد فاق وصف الواصفين ٢٧

فى هذه الأبيات، نسمع لسان حال الكون ينادى يوسف الصديق، مواسيًا له فى محنته، فيذكره بأن هذا البلاء الذى أصابه، لم يكن قد أصابه صدفة أو خبط عشواء، لا، بل هو مكتوب عليه، فلا يتبرم بالقضاء ولا يسخط، وعليه أن يصبر، لأن الصبر من الإيمان.

ولا غرو فللصابرين عاقبة حسنة، فى الدنيا وفى الآخرة.

أما عاقبة الصبر فى الدنيا، فهى وصف الصابرين بالعقل الراجح والحكمة، وأكثر الرجال شهرة فى التاريخ، هم الذين صبروا على مرارة المصائب التى نزلت بهم، ولا يزال الناس يتناقلون قصصهم بكل استحسان وإعجاب.. حتى فى ميادين القتال، فإن أكثر الخصمين صبرًا، يكون الأجدر بإحراز النصر.

وأما عاقبته فى الآخرة، فهى الفوز بدخول الجنة.. لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر] وتلك لعمر الله أسمى ما تتطلع إليه نفوس المؤمنين.

ها نحن أولاء لا نتصور لسان حال الكون يخاطب يوسف الصديق فيقول: هيه يا يوسف؛ يا ابن الأكرمين! أنت لست أول المبتلين فى هذه الدنيا.. فلقد سجل التاريخ فى صفحاته، ما لاقاه عظماء الرجال من الأهوال، وما نزل بهم من المصائب، لاسيما الذين اصطفاهم واختارهم لحمل أعباء رسالاته.

ولا غرو فأنت نبى مرسل يا يوسف، والأنبياء فى كل الأزمان، عرضة للابتلاء، فطريقهم ليس مفروشًا بالورود، وحياتهم لا تعرف الراحة والدعة، وليس فى حياتهم ترف، بل هى حياة الجهاد والصبر والمصابرة، بحيث يعجز البيان عن تصوير ما لاقوه من أهوال، فصبروا وصمدوا حتى حققوا ما أرسلوا من أجله.

فعليك أن تتأسى بإخوانك الأنبياء الذين سبقوك، الذين أوذوا فى سبيل الله فصبروا، ثم رحلوا عن هذه الدنيا، فلقوا ربهم وهو عنهم راض.

يوسف فى السجن بين المجرمين

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾

اثنان دخلا معه سجن الظالمين المفترين ٢٨
فى السجن قد لاقى رجالاً صادقين وكاذبين ٢٩
عرفوه ذا خلق كريم من سلالة صالحين ٣٠
أَنِسُوا بهِ وقد اطمأنوا أنه رجل فطين ٣١

فى اليوم الذى سيق فيه يوسف الصديق ظلمًا ، إلى السجن ، كان معه اثنان ، دخلا معه السجن، فى نفس اليوم ، ولذلك ذكرهما القرآن الكريم فقال: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ... ﴾ والفتى مشتق من الفتوة ، وهو الذى يوصف بالجرأة والإقدام والحزم أيضًا ، ويتمتع بحيوية الشباب .

أخيرًا : استقر يوسف الصديق فى غياهب السجن ، بين معتادى الإجرام والبرءاء معًا، والصادقين والكاذبين، والخبيثين وحسنى النية . . إنه السجن الذى يجمع الأخلاط من الناس ، من كل أنواع ومعادن البشر .

بيد أن يوسف الصديق ، سرعان ما أثبت وجوده بين نزلاء السجن ، لقد تبينوا فطنته ، ورجاحة عقله ، أدركوا أنه معدن طيب ، هو غريب على مجتمع السجون ، ليس من نوع معتادى الإجرام ، بل تبينوا أنه من سلالة آباء كرام، ولا غرو فكثير من المجرمين فيهم فراسة قلما تخطئ فى الحكم على الآخرين .

فمن ثم أنِسُوا به ، لكونهم وجدوا عنده ما يفتقدونه فى أنفسهم ، فصاروا يفضون إليه بأسرارهم ، ويستشيرونه فى أهم أمورهم وأخطرها .

قال القرطبى فى تفسيره : « واستأنس به أهل السجن ، فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس فى السجن مع يوسف ، وأحبه صاحب السجن ، فوسع عليه ثم قال له : يا يوسف ! لقد أحببتك حبًا لم أحب شيئًا حبك ، فقال يوسف : أعوذ بالله من حبك ، قال: ولم ذلك؟! فقال: أحبنى أبى،ففعل بى إخوتى ما فعلوه. . وأحبتنى سيدتى ، فنزل بى ما ترى» .

وقال ابن كثير : « ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن ، تآلفا به وأحباه حبًا شديدًا وقالا له: والله لقد أحببناك حبًا زائدًا قال: بارك الله فيكما ، إنه ما أحبنى أحد إلا دخل على من محبته ضرر ، أحبتنى عمتى فدخل على الضرر بسببها ، وأحبنى أبى فأوذيت بسببه ، وأحبتنى امرأة العزيز فكذلك ، فقالا : والله ما نستطيع إلا ذلك . .».

يوسف يحبه نزلاء السجن

.....

السجن تكثر فيه أحلام لكل النازلين ٣٢
ونبوة الصديق ، تأويل الرؤى للحالمين ٣٣
فأبوه بَشَّرَه بهذا قبل عشرات السنين ٣٤
لما رأى الرؤيا التى أودته للذل المهين ٣٥
فى السجن صار يفسر الأحلام بالقول الأمين ٣٦

مما لا شك فيه ، أن ليس ثمة شيء أحب إلى نزلاء السجون ، من الحرية ، فأسمى ما تتطلع إليه نفس السجين هو : أن يبارح أسوار السجن اللعينة . . تلك الأسوار التى تحد من حركته ،وتقيد من خطوته ، كل نزلاء السجون دون استثناء،ينشدون الحرية . . إذن فليس غريبًا أن تكون معظم أفكار السجناء، تدور حول اليوم الذى ينعمون فيه بالحرية . . فلا غرو أن يكون ذاك اليوم هو : حلم يقظتهم .

ومن المعروف علميًا أن معظم أحلام الناس فى نومهم ، تكون ترجمة للأعمال اليومية التى يباشرونها فى يقظتهم [١] ، سواء أكانت أعمالاً فكرية أو جسمية . لذلك ، فإن نزلاء السجون تكثر أحلامهم ، فيصبح الواحد منهم يقص ما رآه فى نومه على الذين معه ، عساه يجد فيهم من يبشره ، بأن فى رؤياه ما يوحى بقرب انبلاج فجر حريته . . ونبوة يوسف الصديق هى: تأويل الأحاديث ، والأحاديث هى : ما يراه الناس فى المنام ، وهى معجزة له ، فإنه لم يلحقه فيها خطأ .

لقد بشره أبوه بهذه البشارة ، وذلك حينما قص رؤياه المشهورة عليه ، تلك الرؤيا التى أثارت عليه حقد إخوته ، فكادوا له ، وهموا بقتله ، ثم اكتفوا بإلقائه فى الجب . . وقد خرج من الجب إلى بيت العزيز رقيقًا . . وأخيرًا إلى السجن مظلومًا .

وبشرى يعقوب لولده هى فى قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ** ﴾ إلخ الآية .

عاش يوسف الصديق حياته الجديدة بين نزلاء السجن كل صباح يجلس بينهم، يفسر لهم ما قد رأوه من رؤى وأحلام فى نومهم . . وكما ذكرنا آنفا فهو الذى لم يلحقه خطأ فى تفسير الرؤى . . لأن تفسير الأحلام معجزة له كما قيل .

(١) روى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: « الرؤيا ثلاثة : منها أهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم، ومنها ما يهتم به فى يقظته فيراه فى منامه ، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . . » تفسير القرطبى.

أحد النزلاء يحكى ليوسف رؤياه

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾

هذا السجين رأى منامًا ، وهو بين النائمين ٣٧
فأتى إلى الصديق قال له : أتيتك أستبين ٣٨
إنى رأيت الخمر أعصرها لأجل الشاربين ٣٩
ماذا ترى ؟! إنى أحس براحة المستبشرين ٤٠

برغم كثرة الرؤى التى فسرها يوسف الصديق ، لنزلاء السجن ، إذ لا يمر يوم دون أن يفسر فيه ، رؤيا أو أكثر.

إلا أن اثنين من النزلاء رأيا منامين ، فسرهما يوسف ، فلم يخطئ تفسيره لهما من الحقيقة شيئا . . ولا غرو فالقرآن الكريم لم يذكر الرؤى الكثيرة التى فسرها يوسف ، لنزلاء السجن ، سوى رؤيا هذين الفتيين ، هما ساقى الملك وخبازه .

جاءه أحدهما فقال له : إنى رأيت رؤيا ، فاعبرها لى . . وقيل : كان يوسف قال لنزلاء السجن: إنى أعبر الأحلام. . قال يوسف للرائى: خيرًا، فما ذا رأيت؟! قال: رأيت نفسى أعصر خمرًا ـ أى عنبًا ـ قال القرطبى فى تفسيره : « قيل : إن أحد الفتيين قال لصاحبه : تعالى حتى نجرّب هذا العبد العبرانى ، فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا . . هذا قول ابن مسعود.

وقال الطبرى: لقد سألاه عن علمه فقال: إنى أعبر الرؤيا ، فسألاه عن رؤياهما . . قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها، وسألاه عنها ، ولذلك صدق تأويلها. . وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «إن أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ».

وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذبًا ، والآخر كان صادقًا .

وقال ابن عباس: لما رأيا رؤياهما، أصبحا مكروبين، فقال لهما يوسف : مالى أراكما مكروبين ؟! قالا : يا سيدنا ! إنا رأينا ماكرهنا ، قال: فقصّا علىّ، فقصا عليه».

قال الفخر الرازى : قال مجاهد : كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا ، فأتيا يوسف عليه السلام فسألاه عنها، فقال الساقى : أيها العالم ، إنى رأيت كأنى فى بستان ، فإذا بأصل عنبة حسنة فيها ثلاثة أغصان ، عليها ثلاثة عناقيد من عنب ، فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرته فيه وسقيتها الملك فشربه ، فذلك قوله تعالى : « إنى أرانى أعصر خمرًا ».

الفتى الثانى يقص رؤياه على يوسف

﴿ وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

أما الأخير فقال : جئت لأسمع القول المبين ٤١
إنى رأيت الخُبْزَ أحْمِلُه لأجل الآكلين ٤٢
الطير تأكل منه كانوا كثرة للناظرين ٤٣
هيا فأخبرنى ، فإنك فى عداد المحسنين ٤٤

ما إن انتهى الفتى الأول ـ ساقى الملك ـ من قص رؤياه على يوسف الصديق ، حتى تقدم الفتى الثانى ـ الخباز ـ فقال : أنا أيضًا ، رأيت رؤيا ، فاعبرها لى ، فأنت رجل تبدو على محياك سمات الخير والصلاح .

قال له يوسف : خيرًا رأيت ؟! هات ما عندك ! قال: رأيت كأنى أحمل فوق رأسى خبزًا ، وقد اجتمعت الطيور ـ وقد كانت كثيرة ـ تأكل من الخبز الذى كان على رأسى .

هذه الرؤيا أيها السيد ، جعلتنى أهتم بها دون غيرها ، برغم كثرة الرؤى التى رأيتها قبلاً ـ وهى كثيرة ـ بيد أننى لا أكاد أذكر منها شيئًا . . ذلك لأننى بعد أن أستيقظ من نومى أنساها تماما .

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ . أى إن الذى حملنا على سؤالك، وقص رؤيانا عليك، هو اطمئناننا إليك، واستئناسنا بك ، واعتقادنا فيك الخير ، فضلا عن الصدق الذى عرفناه عنك ، فهات أيها الصديق ما عندك ، من تأويل الأحاديث ، فماذا ترى تأويلا لرؤياى ، فإنى مشغول بها كثيرًا؟!

ولا إخالك ـ فيما أعتقد ـ تخطئ معناها وتفسيرها ، وذلك مما يبدو عليك واضحًا، فى سمعتك ،وفى سلوكك ، وفى أخلاقك . . أخلاقك التى نلت بها إعجاب كل نزلاء السجن دون استثناء.

والواقع أننا لم نعهد عليك الكذب قط . . فليس غريبا أن تكون عالما بتفسير الرؤى.

قال البيضاوى فى تفسيره: وقال الآخر: أى الخباز «إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزًا تأكل الطير منه ـ تنهش منه ـ نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين» من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين، وإنما قالا ذلك لأنهما رأياه فى السجن يذكر الناس، ويعبر رؤياهم ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه ».

يوسف يكشف عن قدرته العلمية

﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾

هذا هو الصديق يسدى نصحه للسامعين ٤٥
هى فرصة للنصح حتى لا يظلوا جاهلين ٤٦
يدعو إلى التوحيد بالحسنى وبالقول المبين ٤٧
إن يأتكم رزق ، فذا أدريه قبلاً عن يقين ٤٨

لقد انتهى الاثنان من قص رؤياهما على سمع يوسف الصديق، الذى استمع لهما، وهو يزن كل كلمة من كلام كل منهما. . ولم لا ؟!

فهو يسمع بأذنيه ، ثم يفكر بعقله ، ثم يستعمل علمه وفراسته ، فى حل رموز ومعانى الكلمات ، وفى النهاية يصدر قوله الذى يراه مناسبًا ، ومتمشيًا مع أحداث الرؤيا التى قُصَّت عليه .

ولا غرو فتأويل الأحلام ، ليس علمًا ذا قواعد يرجع إليها المفسر ، وإنما هو فراسة يمنحها الله لبعض عباده الذين يتصدون لتفسير الأحلام.

ولا غرو فالمفسر له أكثر من وسيلة ، لمعرفة تفسير الرؤيا التى تُقَصُّ عليه، منها: أنه يرى فى شخص الرائى جزءًا من تفسير رؤياه ! ومنها أيضًا :

الثقافة الواسعة ، والإلمام بأخبار السابقين ، ومعرفة الأمثال ، كل هذه الوسائل يستعملها المفسر فى تفسير الأحلام مع حفظ القرآن الكريم، ومعرفة الأحاديث الشريفة. . هذه كلها وسائل ينبغى أن تتوفر فى الذى يتصدى لتفسير الأحلام، أما يوسف الصديق ، فقد آتاه الله علم تأويل الأحاديث!!

بعد أن استمع يوسف للاثنين ، اغتنم فرصة احتياجهما له ، واعتباره فى نظرهما واعظًا ، أو معلمًا ، فقال لهما :

﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ... ﴾

أراد أن يدعوهما إلى توحيد الله ، ويرشدهما إلى الطريق القويم ، قبل أن

يخبرهما بتفسير رؤياهما ، وهذا لعمر الله منتهى الذكاء، إذ قدم لهما ما يريده ، قبل أن يعطيهما ما يريدانه.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى . . . ».

فهذا مما عند يوسف من علم ، إنه لا يعرف تأويل الأحلام وحدها، ولا ينبئ عن الغائب بالتوسم فى وجه الشاهد وحسب ، بل إنه يخبر عن الغائب الذى لا يرى الناس منه شاهداً أو دليلاً ، إنه يخبر عن الطعام الذى سيأتيهما من خارج السجن ، اليوم ، أو غداً ، أو بعد غد ، إلى ما شاء الله من أيام مقبلة ، وهذا العلم هو مما كان لعيسى عليه السلام كما يقول سبحانه على لسان عيسى لبنى إسرائيل :

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

[آل عمران : ٤٩]

يوسف يدعو إلى توحيد الله

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) ﴾

ذاكم لأن الله علمنى من العلم المكين ٤٩
إنى تركت القوم ما كانوا بحق مؤمنين ٥٠
كفروا بدين الله ما كانوا بِبَعْثٍ موقنين ٥١
لاشك هم يوم القيامة فى عداد الخاسرين ٥٢

ويستطرد يوسف الصديق ، مواصلا حديثه إلى الاثنين ، فيلفت أنظارهما إلى شىء هام هو : وحدانية الله عز وجل ، والاعتراف بربوبيته ، والتفانى فى عبادته وطاعته ، ثم يضرب لهما مثلاً حيًا عنه هو شخصيًا فيقول : ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا . . . ﴾ .

ـ وهذه منزلة عظيمة ، أتدرون كيف وصلت إليها ؟! ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ .

ـ لأننى أعبد الله وحده ، ولا أعبد ربًا سواه ، فمن ثم منحنى علم التأويل ، هو علم بعيد عن التكهن والتنجيم والسحر ، وإنما هو نورانية يقذفها الله فى قلب كل مخلص فى عبادة مولاه .

ثم أردف قائلاً : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

قال البيضاوى فى تفسيره هذه الآية : « تعليل لما قبله ، أى علمنى ذلك لأننى تركت ملة أولئك » ، وقال ابن كثير فى تفسيره هذه الآية : « عن ابن عباس قال: ما أدرى لعل يوسف كان يعتاف ـ يتنبأ بواسطة علامات يعرف بها ذلك ـ وهو كذلك .

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا فى نومهما من حلم ، فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال : ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ .

قال القرطبى فى تفسيره :« وكان هذا من علم الغيب الذى خص به يوسف ، وبين أن الله خصه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعنى دين الملك .

ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما ، والعلم بدين الله، فاسمعوا أولاً ما يتعلق بالدين لتهتدوا ، ولهذا لم يعبر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام».

قال الفخر الرازى فى تفسيره : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون ﴾ أى لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم ، وإنما أخبركما بوحى من الله ، وعلم حصل بتعليم الله ، ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

فيه مسألتان :

المسألة الأولى : لقائل أن يقول : فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ توهم أنه عليه السلام ، كان فى هذه الملة .

فنقول : جوابه من وجهين :

الأول : أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشىء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضًا فيه .

الثانى : وهو الأصح : أن يقال : إنه عليه السلام كان عبدًا لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد، ولعله قبل ذلك، كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفًا منهم، على سبيل التقية ، ثم إنه أظهره فى هذا الوقت، فكان هذا جاريًا مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر .

المسألة الثانية : تكرير لفظ « هم » فى قوله تعالى : ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون ﴾ لبيان اختصاصهم بالكفر ، ولعل إنكارهم للمعاد أشد من إنكارهم للمبدأ ، فلأجل مبالغتهم فى إنكار المعاد، كرر هذا اللفظ للتأكيد .

واعلم أن قوله تعالى: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ إشارة إلى علم المبدأ وقوله تعالى : ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون ﴾ إشارة إلى علم المعاد ، ومن تأمل فى القرآن المجيد ، وتفكر فى كيفية دعوة الأنبياء عليهم السلام ، علم أن المقصود من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، صرف الخلق إلى الإقرار بالتوحيد وبالمبدأ أو المعاد ، وأن ما وراء ذلك عبث .

يوسف يذكر فضل الله على آبائه

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ .

وسلكت درب السابقين من الجدود الأولين ٥٣
درب الخليل ونسله ، كانوا هداة مهتدين ٥٤
يدعون للتوحيد أهل الجهل ثم المشركين ٥٥
الله يعطى فضله من شاء كونوا فاهمين ٥٦
والناس أكثرهم على النعماء ليسوا شاكرين ٥٧

ها نحن أولاء لا نزال مع يوسف الصديق ، وهو يواصل حديثه إلى الاثنين اللذين قصا عليه رؤياهما ، إنه يسدى لهما النصح الثمين ؛ ليؤمنا بالله الواحد الأحد الذى لا معبود فى الكون بحق سواه .

ومن خلال نصحه لهما يغتنم فرصة إصغائهما لحديثه ، فيتحدث عن نفسه ، وعن آبائه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب . . فهؤلاء كانوا أنبياء مرسلين ، وقد أفنوا حياتهم فى الدعوة إلى توحيد الله .

ومع هذا فهو لم ينس أن يتبرأ من الشرك ، هو وآباؤه الأولون . . ثم يردف قائلاً : ذلك هو فضل الله يعطيه من يشاء من عباده ، وقد كان لنا نحن ـ أى إبراهيم وذريته ـ النصيب الأوفى من ذلك الفضل الذى امتن الله به على عباده ، ولكن معظم الناس يجحدون نعم الله ، فلا يؤدون الشكر لمانح النعم .

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوب ﴾ قال ابن كثير فى تفسيره هذه الآية : يقول : هجرت طريق الكفر والشرك ، واتبعت الطريق القويم على نهج آبائى وأجدادى ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى ، واتبع المرسلين ، وأعرض عن طريق الظالمين ، فإنه يهدى قلبه ما لم يكن يعلمه ، ويجعله إمامًا يقتدى به فى الخير ، وداعيًا إلى سبيل الرشاد .

﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ هذا هو التوحيد ـ وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له ﴿ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أى أوحاه إلينا ، وأمرنا به ، ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ أى لا يعرفون نعمة الله عليهم ، بإرسال الرسل إليهم بل ﴿ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم] .

يوسف يناقش النزلاء فى توحيد الله

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾

يا إخـوة السجن اسـمعوا قـولى وكونوا مـدركين ٥٨
إن تـؤمنـوا بـتـعدد الأربـاب لـسـتم راشـديـن ٥٩
الـلـهُ ربُّ الخَلْق لـيـس لـه شـريـكٌ أو مـعـين ٦٠
هو واحـدٌ ، هو قـادرٌ ، هو قـاهرٌ لا يـسـتـكين ٦١

لا يزال يوسف الصديق يـتحدث إلى الفتيين اللذين قصّا عـليه رؤياهما ، ولا غرو فبرغم أنه يتحدث إلى الاثنين ، إلا أن حديثه كان موجهًا إلى كل المصريين آنذاك ، ذلك لأنهم كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة . . وربما كان مع بعض نزلاء السجن ،آلهة من أصنامهم يعبدونها على طريقتهم ، وهـذا ما حدا بيوسف أن يقول لهم جميعًا : ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ . هذه الآلهة التى تعبدونها ، هى من صنع أيديكم ، وبالتالى فهى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تنفع ولا تضر .

أهى خير أم الله الواحد القهار ، خالق السموات والأرضين ، والشجر والدواب والطير ، وخلق الناس جـميعًا . . هذه المخلوقات كلهـا ، أفلا تدل على وحدانية اللـه ، وعظمته وهيمنته وقدرته ، وأنه قادر قاهر . . ولا ينبغى أن يكون له شركاء فى ملكه .

قال ابن كثير فى تفسيره هذه الآية : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ... ﴾ إلخ . ثم إن يوسف أقبل على الفتيين بالمخاطبة ، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما فقال : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ الذى ولى كل شىء بعز جلاله ، وعظمة سلطانه » .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ أى يا ساكنى السجن ، وذكر الصحبة لطول مقامـها فيه كقولك : أصحاب الجنـة وأصحاب النار ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ أى فى الصغر والكبر والتوسط ، أو متفرقون فى العدد ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

وقيل : الخطاب لهما ولأهل السجن ، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى ، فقال ذلك : إلزامًا للحجة ، أى آلهة شتى لا تضر ولا تنفع ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ . الذى قهر كل شىء نظيره «﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وقيل : أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدد الإلـه ، لتفرقوا فى الإرادة ، ولـعلا بعضهم علـى بعض ، وبين أنها إذا تـفرقت لم تكن آلهة » .

يوسف يندد بما يعبده الناس من دون الله

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

فلقد عبدتم دونه أسماء صنع الآدمين ٦٢
أنتم كذا آباؤكم كنتم جميعًا جاهلين ٦٣
كل الذين عبدتموهم دون رب العالمين ٦٤
لا يملكون النفع أو ضرًا لكل العابدين ٦٥
والناس أكثرهم فليسوا للحقيقة عارفين ٦٦

ها نحن أولاء لا نزال مع يوسف الصديق، وهو يتحدث إلى الفتيين اللذين قصا عليه رؤياهما ، ناصحًا لهما ، مبينًا خطأ معتقدهما ، لا هُمَا الاثنان فحسب ، وإنما كل الذين هم على شاكلتهما لاسيما آباءهم وأجدادهم الذين ورثوا عنهم هذا المعتقد الخاطئ.

ثم يردف قائلاً : إن الآلهة التى تعبدونها من دون الله ، ليس لها أدنى وجود أو حقيقة إلا فى عقولكم أنتم . . فى حين أن العبادة لا ينبغى أن تكون إلا لله الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ، وليس له شريك فى ملكه . . هذا هو الدين الحقيقى الذى ارتضاه المولى عز وجل لكل خلقه ، بيد أن الناس معظمهم لا يعلمون الحقيقة .

قال ابن كثير فى تفسيره هذه الآية ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ إلخ ثم بين لهما ـ أى يوسف ـ أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة ، إنما هو جهل منهم ، وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أى حجة ولا برهان.

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقيم الذى أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ . أى فلهذا كان أكثرهم مشركين».

قال البيضاوى فى تفسيره : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما

من أهل مصر ﴿ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أى الأشياء باعتبار أسامى أطلقتم عليها من غير حجة تدل على تحقق مسمياتها ، فيها ، فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة، والمعنى أنكم سميتم ما لم يدل على استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل آلهة ، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ فى أمر العبادة ﴿ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ لأنه المستحق لها بالذات من حيث أنه الواجب لذاته ، الموجد للكل والمالك لأمره ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ على لسان أنبيائه، الذى دلت عليه الحجج ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الحق وأنتم لا تميزون المعوج من القويم ، وهذا من التدرج فى الدعوة وإلزام الحجة ، بين لهم أولا رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة . . .إلخ ما قال».

تعبير رؤيا الأول ، الخروج من السجن

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

من بعد ذلك قال يوسف : إذ يجيب السائلين ٦٧
عما رأى الساقى فقال : نجوت من سجن لعين ٦٨
فَلَسَوْفَ تَخْرجُ مِنَ ظَلاَم السّجن والمستضْعَفين ٦٩
والخَمْرَ تَسْقِيها العزيزَ ، وتغتدى فى الآمنين ٧٠

لقد تحدث يوسف الصديق إلى الفتيين حديثًا مستفيضًا . . حدثهم عن الإيمان بالله وحده ، أنه لا شريك له فى ملكه . . وعن تعدد الآلهة التى يعبدونها من دون الله أنها لا تنفع ولا تضر ، لكونها من الجمادات، لا تسمع ولا تبصر ، وبين لهم ضلال معتقدهم الذى ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، لكونهم تنكروا لعقولهم بعبادتهم آلهة من دون الله لا يملكون ضرًا ولا نفعًا .

كان حديث يوسف الصديق ، موجهًا إلى كل المصريين من خلال الفتيين ، وبعد أن أدى ما عليه من حق الدعوة إلى الله ، شرع فى تأويل رؤياهما ، وقد كان الاثنان ينتظران التأويل بفارغ الصبر ، بيد أنهما لبثا يستمعان حديث يوسف إلى النهاية ، لا لكونهما راضيين مقتنعين بما يقول . . بل لكونهما مضطرين . . فقال موجها حديثه للاثنين معًا : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ .أى أبشر أيها الساقى ، لقد جاءك الغوث والفرج من عند الله ، لسوف تخرج من ظلمات هذا السجن ، وتعود إلى عملك الأول ، ساقيا للملك ، تسقيه الخمر بيدك ، وتكون مقربًا إليه ، مرضيًا عنده .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ أى قال للساقى : « إنك ترد إلى عملك الذى كنت عليه من سقى الملك ، بعد ثلاثة أيام. . ».

قال البيضاوى فى تفسيره : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ يعنى الشرابى ، فيسقى ربه خمرًا كما كان يسقيه قبل ، ويعود إلى ما كان عليه.

قال صاحب تفسير المنار : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ وهو الذى رأى أنه يعصر خمرًا ، ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ يعنى بربه : مالك رقبته ، وهو الملك ، لا ربوبية العبودية ،فملك مصر فى عهد يوسف لم يدع الربوبية والألوهية كفرعون موسى وغيره ، بل كان من ملوك العرب الرعاة الذين ملكوا البلاد عدة قرون .

ورؤيا الثانى ، الحكم عليه بالموت صلبا

﴿... وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾

عـمّا رَأى الخَبّاز قَال : كـانـه وحـى مـبـين ٧١
إنى أراك تمـوت صلـبًا ، بئـس صَلْبُ المجرمـين ٧٢
والطـير تـأكل رأسـك المصـلوب أكـل الجائـعين ٧٣
قد تمـت الفـتوى ، وتم الـقول كـونوا مـدركين ٧٤

لقد فرح الـساقى فرحًا لا مزيد عليـه ، ولم لا ؟! فهو سيبارح عـالم الأسوار إلى عالم الحرية . . أما الخبـاز فإنه لا يزال ينتظر ما سوف ينطق بـه يوسف الصديق ، وقد كانت عيناه ترمقان يوسف ، بينما ازدادت دقات قلبه . . إنها لحظات انتظار ، كل دقيقه منها تعدل يومًا بأكمله. بعد أن بشر يـوسف الصديق ، الساقى ، لم يلبث طويلاً ، بل أردف قائلاً وقد بدت على محياه صرامة القاضى فقال: ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ . فى هذه اللحـظة التى نطق فيهـا يوسف بما نطق، أسقط فى يد الخباز ، وقد كان يتـصور أن رؤياه توحى بشىء سار . . ففوجئ بما خيب ظنه ، وأبطل تصوره.

قال القرطبى فـى تفسيره : ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الـطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾ وأما أنت فتدعى بعد ثلاثة أيام فتصلب، فتـأكل الطير من رأسك . . قال: والله ما رأيت شيئًا ، قال: رأيت أو لم تر ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

ثم قال : قال علماؤنا : إن قيل : من كذب فى رؤياه ، ففسرها العابر له ، أيلزمه حكمها ؟! قلنا : لا يلزمه ، وإنما كان ذلك فى يـوسف لأنه نبى ، وتعبير النبى حكم ، وقد قال : إنه يكون كذا وكذا ، فأوجد الله تعالى ما أخبر ، كما قال تحقيقًا لنبوته.

فإن قيـل : فقد روى أن رجلاً جاء إلـى عمر بن الخـطاب فقال: إنى رأيـت كأنى أعشبت،ثم أجدبت ، ثم أعشبت ثم أجدبت، فقال عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن ثم تكفر ، ثم تموت كافرًا .

فقال الرجل: ما رأيت شيئًا ،فقال له عمر: قضى لك ما قضى لصاحب يوسف . . قلنا : ليست لأحد بعد عمر ، لأن عمر كان محدثا ، وكان إذا ظن ظنًا كان .

يوسف يطلب ممن خرج أن يذكره عند الملك

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾

من بعد ذلك قال للساقى : مقال السائلين ٧٥
اذكُرْ لدى مولاك شأنى ، فهو لاه عن يقين ٧٦
إنى سُجِنْتُ بغير ذنب ، علّه أن يستبين ٧٧
ساقى المليك غدا طليقًا ، فى عداد الآمنين ٧٨
لكنه نَسِى الوصية صار فى المتشاغلين ٧٩

بعد أن نطق يوسف الصديق بتأويل رؤيا الخباز ، توجه إلى الساقى الذى عرف من تأويل الرؤيا أنه خارج من السجن . . فقال له يوسف : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ يبدو أن الساقى لم ينس فى غمار فرحته أن يقول ليوسف الصديق ما معناه : سلنى ما شئت . . كلفنى بأى أمر أستطيع القيام به لأجلك، فبادر يوسف قائلاً له . . اذكرنى عند ربك ـ الملك ـ ذَكِّرْهُ بأمرى ، فهو يعلم أننى مظلوم ، وسجنت بغير ذنب . . وما منع المليك من إصدار أمره بإخراجى من السجن، إلا كثرة مشاغله ، فمن ثم نسى قضيتى وشأنى . . فالذى أرجوه منك أن تذكره بأمرى. وخرج الساقى فعلاً ، أصبح طليقًا فى قصر الملك يسقيه الخمر، قريبًا منه، ساهرًا لاهيًا معه ليل نهار، لا يكاد يجد لحظة فراغ يفكر فيها . . لقد أنساه الشيطان أن يذكر للملك قصة يوسف الصديق .

قال ابن كثير فى تفسيره: « لما ظن يوسف عليه السلام ، نجاة أحدهما ، وهو الساقى، قال له يوسف خفية عن الآخر ، والله أعلم ، لئلا يشعره أنه المصلوب قال له: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ يقول: اذكر قصتى عند ربك، وهو الملك، فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذكر، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبى الله من السجن » .

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره المنار : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أى عند سيدك الملك، بما رأيت وسمعت وعلمت من أمرى، عسى أن ينصفنى ممن ظلمونى، ويخرجنى من السجن . . وهذا الذكر يشمل دعوته إياهم إلى التوحيد ، وتأويله للرؤيا، وإنباءهم بكل ما يأتيهم من طعام وغيره قبل إتيانه . . وآخره فتواه الصريحة، فهى جديرة بأن تذكره به كلما قدم للملك شرابه. ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ أي أنسى الساقى تذكر ربه ، وهو أن يذكر يوسف عنده ».

يوسف يمكث فى السجن بضع سنين

﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾

إن الـذى أنـسـاه شـيـطان يـضـل الـذاكـريـن ٨٠
قد ظل يوسـف قابعًا فى السجن بضـعًا من سنين ٨١
قالـوا : فتلـك عقوبـة ، من عـند رب العـالمين ٨٢
لـسؤالـه الـسـاقى فـهـذا لـيس لـلـمـتوكـلـين ٨٣

لقد نَسِى الساقى أن يذكر يـوسف عند سيده الملك ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ أى مكث يوسف فـى السجن سبع سنين . . قـيل : إنه لبث فى السجـن بضع سنين ، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق ، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق العظيم جل وعلا .

هذا القول ، مـردود عليه . . لقد خلق الـله الأسباب والمسببـات ، وأمر عباده أن يتخذوا الأسباب ، فإذا مـا نزلت بالإنسان نازلة ما ، فليتخذ لـها الأسباب المتاحة ، ولا ينبغى له أن يتـرك سببًا ، ما دام ذلك السبب مستطاعًا . ويوسف الـصديق ما طلب من الساقى أن يذكره عند ربه ، إلا من هذا الـقبيل ـ أى الأخذ بالأسباب . ذلك لأنه أُدخل السجن بأمر الملك ، وبالتالى فلم يـخرج هو من السجن إلا بأمر الملك أيضًا . . وما أمر الملك بإخراجه من السجن ، إلا بعد أن ذكره الساقى بأمره ، وذلك بسبب الرؤيا الفظيعة التى رآها الملك !!

فإذا كان هذا هو ما فعله يوسف ، وهو ما كان ينطوى عليه قلبه وعقله ووجدانه ، فلا يعقل أن يعاقبـه ربه على ذلك ، فليس ذلك ذنبًا يستحق العـقاب عليه . وتمشيًا مع منطق القائلين : بأن الله عاقب يوسف على سؤاله الساقى.

روى أن جبريل عليه السلام جاء يوسف الصديق ، وهو فى الـسجن معاتبًا فقال له : « يا يوسف! من خلصـك من القتل من أيدى إخوتك ؟ ! قال : الله تـعالى ، قال : فمن أخرجك من الجب ؟! قال: الـله تعالى ، قال : فمن عصمك مـن الفاحشة ؟! قال : الله تعـالى ، قال : فمن صرف عـنك كيد النساء؟! قـال : الله تعالى ، قـال : فكيف تركت ربك فلم تسأله ، ووثقت بمخلوق ؟! قال : يارب كلمة زلت منى ، أسألك يا إله إبراهيم ، وإله الشيخ يعقوب أن ترحمنى ، فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين ».